تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

وفي السنة ٤٤٨ للعرب (١٠٥٦ م) اشتدّ المرض والجوع في بغداد حتى بيعتْ الرمّانه بدينار. وفرغت المدينة من الادوية وازداد (٢٣٤) الذباب وفسد المناخ وهلك اكثر من ثلث الاهالي. وحدث مثل ذلك في سورية وفي مصر ولاسيما في فارس حتى شُيّع كلّ يوم في مجارى ثمانية عشر الف نعش. وأُحصي عدد موتاها مدة ثلاثة اشهر فكان الف الف وستمائة وخمسين الفاً. ومات في سمرقند مدّة شهرين مائتان وستة وثلاثون الفاً. وعلى ما يظهر لم يحدث طاعون كهذا منذ بدء الخليقة.

وفي السنة ٤٤٩ للعرب (١٠٥٧ م) التحم القتال بين المعدّيين والغزّ بجوار الموصل فانكسر الغزّ وباد منهم الف ومائتا رجل وانهزم قتلميش قائدهم مع فريق منهم الى جبل سنجار. فسدّ السنجاريون الابواب واستبزأوا بهم. فسمع السلطان وانتوى ان يكرّ بذاته على الموصل. لكنّ الخليفة ثبّطه وارسل يقول له ان يتريّث ريثما يصل جيوشه من فارس. فسخط السلطان جدًّا وقال: الآن عرفت ان نيّة الخليفة غير صافية فقد اشار اوّل بدء ان اقتصر على ارسال الجيوش فارتضيت وهلك اغلبهم. والآن يشير عليّ بمثل ذلك.

ظلّ السلطان ثلاثة عشر شهرًا في بغداد وغادرها دون ان يواجه الخليفة. وأمر ان تُنقَل خيامه الى ظاهر المدينة. وتألّب جنوده واخربوا دور الجانب الشرقيّ من العاصمة واتخذوا جسورها ليصلوا منها متاريس. وسار السلطان الى تكريت وحاصرها وسأل الاهالي مساعدةً فقالوا: نحن معدّيون ولا يتيسر لنا ان نساعدك ما لم يأمرنا الباسيريّ زعيمنا. فثار السلطان سخطاً ووضع

فيهم السيف واحلى كثيراً من [illegible]. والفتيان . وبعد هذا خضع التكريتيون وصالحهم وانطلق الى بيت وازيق وساعده اهاليا . ثم توجه الى الموصل وكان البساسيري (٢٣٥) والاعنيا. قد هجروها . فاقام السلطان اياماً في البلاط وقصد مدينة بلد فالتمس منه هزاراسب القائد ان لا يغزوها . فقال السلطان: انت ترى ان خزائننا فارغة وان الذين معنا جياع متضايقون فلا بدّ لنا من الغزو . فعليك اذن ان ترحل الى الموصل كبارها وصغارها مع كلّ ما يمكنهم ان يحملوه معهم من بيوتهم . ولما تمّ ذلك دخل الغزّ ونهبوا المدينة . واحصي عدد الراحلين فكان عشرة آلاف سوى النساء والصبيان وبعث هزاراسب معهم من يحرسهم في الطريق .

اما زعماء المعدّيين سوى البساسيري الذي انهزم الى سورية ولاذ بالمصريين فلما عجزوا عن مقاومة الغزّ ارسلوا يطلبون الصلح . فرحّب بهم السلطان والبسهم ثياباً حسنة واعتزم الذهاب الى بلد ابن مروان بارمينية . فسألـه المعدّيون ان يغفر له كما غفر لهم . فقال : انكم انتم اقررتم بذنبكم فغفرنا لكم فاذا اقرّ هو كذلك غفرنا له . وانتهى السلطان الى جزيرة قردو فاطاعه اهلها وادّوا له ذهباً كثيراً فلم يتعرّض .

وسار عشرون فارساً من الغزّ الى دير النساطرة المعروف بدير كتول وفيه اربعمائة راهب فذبحوا منهم مائة وعشرين راهباً واقتدى البقية نفوسهم بستة اكيال ذهباً وفضة .

اما ابن مروان فوجّه الرسل الى السلطان خاضعاً خانعاً وراضاه بمائة الف دينار فانقلب السلطان الى سنجار وحاصرها ودوّخها وقتل اربعة آلاف من رجالها حتى سالت دماؤهم كالسواقي واحرق مسجدها الكبير واجتاح دورها كلّها . فانتشرت روائح الجثث وافسدت المناخ وارتحل السلطان الى تل عفر فتوسّل اليه (٢٣٦) الزعماء ان يعدل عن مذبحة سنجار فارتضى شرط ان لا يبقى فيها نافخ نار . عند ذلك خرج جميع من اختفى وتشتتوا في مختلف البلاد واقفرت المدينة من السكان . وكان حفظة السلطان يمنعون التعدّي على الهاربين . جرى ذلك كلّه بسبب ما قذفه السنجاريون بالغزّ من الشتائم لمّا هربوا من وجه المعدّيين .

وارتحل السلطان من هناك الى الموصل واستعمل عليها سيف الدولة ابرهيم اخاه من امه . وكان هذا رجلاً عادلاً جاء يوماً عشار موصلي وسأله ان يقرّر له كلّ يوم مائة دينار ذهباً يقبضها متى يبيعون ويشترون في السوق . فجمع الزعماء وقال لهم : هل انتم راضون بهذا العشار ؟ قالوا نعم اننا راضون به اذا كففتَ عنا يد ضيّاط العجم وجباة العزّ . فأشفق عليهم وقال : لقد كففناهم عنكم ولن نطالبكم باكثر من ضريبة الغلال والثمار في وقتها . وامر المنادين فنادوا باعفاء الشارين والبائعين . فهتف الجميع بحياة سيف الدولة واثنوا على طول اناته .

وانحدر السلطان من الموصل الى بغداد ولمّا شارفها وجّه الخليفة وزيره الكبير الى لقائه وقدّم له كأساً خسروانيّة ذهبيّة مطعّمة بجواهر ثمينة من ياقوت وزمرّد وفيروز وقال له : لقد سرّ امير المؤمنين جداً بانتصارك وابتهج بقربك وهلمّ جرّا . فشكر السلطان للخليفة وقال : انا خادمٌ لهذه الدار شاكرٌ لما غمرتني من الالطاف السنيّة ولم يبقَ لي الّا التشرّف بمقابلة الخليفة والتمتّع برؤيته النبويّة ولا يسعني حرمانها بعد هذا . فقال الوزير : لا مانع من ذلك وقد اصبحتما بيتاً واحداً وامترجتما معاً بالمصاهرة . ثم ودّعه الوزير وعاد فاخبر الخليفة بما جرى . وتوجّه السلطان الى الدار الجديدة التي سبق فشادها (٢٣٧) .

وبعد ايام دُعي السلطان الى بلاط الخليفة فركب يتقدّمه حُشمه ابناء الاسرة المالكة راجلين . ولما دنا من باب القصر وقف برهةً راكباً ثم فُتح له ودخل الفناء . وخرج رجالات الخليفة الى لقائه وكشفوا السجف فدخل الدار الاولى ثم كشفوا السجف الثاني فدخل وشاهد الخليفة مستوياً على عرش يعلو عن الارض نحو سبع اذرع وكان معمّماً بعمامة سوداء وموشّحاً برداء اسود . مثل هذا كان يتوشّح بنو العبّاس ويوشّحون اقطابهم خلافاً لخلفاء مصر فانهم يتوشّحون بثياب بيضاء عم واقطابهم . وكان بيد الخليفة صولجان ذهبيّ والى جانبيه حاجبان .

انحنى السلطان عندما شاهد الخليفة وسجد مراراً وأمر الخليفة فأصعدوه الى عرش ثانٍ اوطأ من عرشه نحو قامة رجل . وقال الخليفة للترجمان : قل

للسطان : ان امير المؤمنين يثني على همتك وعلى اتعابك وقد ابتهج بزيارتك، وهو الآن يستودعك كل ما استودعه الله تعالى من الرعايا والبلاد . فعليك بتقوى الله والعدل في مملكتك واشكر الربّ ما انعم به عليك . فنهض السلطان وانحنى الى الارض وهو يقول : اني عبد طائع لامرك واثقٌ بالله ان يعضدني في انجاز رغبتك . فامر الخليفة فوشحوه بسبعة ثياب سوداء ذات زبق واحد . ووضعوا برأسه عمامةً سوداء مذهّبةً يعلوها تاج مدبّجٌ بياقوتتين ثمينتين رُصعت كل منها بلآلئ فاخرة نجدًا . وجعلوا في معصميه دملجين ذهبيّين . اما الطوق الذهبيّ فلم يرَ السلطان ان يتقلّده بل جعله في طبق حمله حاجبٌ امامه . ورام ان ينحني ثانيةً فلم يتيسر له ذلك بسبب التاج الثمين الذي برأسه . ثم دفع له الخليفة ثلاث رايات ارجوانيّة كُتب فيها كلمات ذهبيّة وأنيطت بارماح واضاف اليها الخليفة فرماناً ملكيًّا وامر المنادين ان ينادوه ملكاً للشرق والمغرب . ولمّا أُمِرَ السلطان بالذهاب سأل الخليفة ان يمدّ اليه يده فقبّلها مرّتين وأمرّها بجبينه وخرج . فاركبوه احد احصنة الخليفة وذهبوا به في حفاوة وكيكبة الى داره .

وفي شتاء السنة ١٣٦٩ للاونان (١٠٥٨ م) زحف الى ملطية ثلاثة آلاف تركيّ وكان سورها متداعياً منذ احتلّها قرياقس من العرب . فقتلوا الاهالي وكوّموهم كوماً كوماً وراحوا ينكّلون بمن بقي ويريدونهم على ابراز المطامير . واجبروا من الجملة على الشماس بطرس معلم الصبيان وهو ينسخ كتاب الصلوات القانونيّة وقد وصل الى هذه العبارة « يُشبه راس يوحنا عنقودًا قطفته هيرودية » فاذابوا شمعاً صبّوه على هامته ووضعوا على صدره طستاً ملوءا جمرات ناريّة . وما ان شاهد النيران عالقة بقدميه حتى قال : طوبى لكما لانكما تطيّرتما ! قال هذا وفاضت روحه . وظلّ الاتراك عشرين يوماً في ملطية يجتاحون وينهبون ويحرقون . ولمّا انقلبوا باغتهم شتاء قاس وهم بجانب جبل السناسنة فهبط عليهم الارمن وفتكوا بهم قاطبةً . وعاد من نجا الى المدينة المهشمة في جملتهم الراهب يوسف وقد نظم ثلاث قصائد في هذا الصدد ونظم يوحنا بن شوشان كذلك اربع قصائد منها قصيدتان بوزن مار افرام السباعي وقصيدتان بوزن مار بالاي

الخامسَ . وخرب دير برجاجي في هذه الجائحة ولم يتعمر بعدُ .

وفي السنة ٤٥٠ للعرب (١٠٥٨ م) حشد البساسيريّ قائد المعدّيين وقريش القائد الثاني جيوشاً ضخمة من عرب وعجم واتراك ممّن ينتسبون الى خليفة مصر وزحفوا الى تلّ عفر فانهزم اينانغ قائد الغزّ الى قلعة الموصل فلحقه المعدّيون وحاصروا المدينة . وحدث فيها غلاء شديد حتى أكل الغزّ خيلهم وبغالهم وجعلوا يقوّضون البيوت (٢٣٠) ويحرقون الاخشاب والجسور ثم انهزموا الى بغداد والتجأوا على السلطان ليسير بنفسه ويقاتل المعدّيين . فغادر بغداد وسمع البساسيريّ فاجتاح المدينة وانهزم الى البرّية . ولمّا وصل السلطان رأى المدينة قد خربت بالمرّة . وقيل له ان ابرهيم ينايل اخاه من أمره يُضمر خلع طاعته وان بينه وبين خليفة مصر مراسلة . فخاف السلطان ان يحتلّ ابرهيم العجم ويضمّ اليه عساكر الغزّ التركمان فارتحل حالاً الى همذان واستقرّ بها وسيّر الجيوش ليقاتلوا ابرهيم في جبال شهرزور فقبضوا عليه وأودوا به .

ولما سمع البساسيري وقريش بسفر السلطان سارا الى بغداد واحتلّاها بسهولة وقبضا على الخليفة القائم وأركباه ناقةً الى الحديثة ونهبا بلاطه وناديا بالمستنصر خليفة مصر وضربا باسمه سكة دنانير ودراهم . واقاما قضاة وفقهاء ومؤذنين ألبسهم ثياباً بيضا . كزيّ المصريين بدلاً من ثيابهم السودا . أمّا كبير الوزرا . وهو الذي استدعى الغزّ الى بغداد فوضعاه ضمن جلد ثور سُلخ حديثاً وخاطاه عليه وتركا وجهه فقط وجعلا قرني ثور على رأسه وألقيا صنّارات في فكّيه وظلّ اليوم كلّه يتقلّى ويتكوّى والاهالي يبصقون عليه ويشبعونه شتماً ولعناً لانه كان سبب تلك الشرور كلها .

وارسلت والدة الخليفة القائم من مخبأها الى البساسيريّ تقول : اكاد أموت جوعاً فارجو ان ترحمني . فاستحضرها واسكنها في احدى غرف البلاط وخصّص بخدمتها جاريتين وعيّن لثلاثتهنّ كلّ يوم اثني عشر رطلاً خبزاً واربعة ارطال بغدادية لحماً . وكانت هذه المرأة ارمنيّة المحتد . امّا ارسلان خاتون امرأة (٢٤٠) الخليفة فكانت عند قريش وبعث السلطان يطلبها فارسلوها اليه مكرّمةً معزّزة .

وفي هذه السنة مات داود جغري بك اخو السلطان طغرل بك وخلّف

ثلاثة بنين اكبرهم ألب ارسلان . ووجه السلطان سفيرًا الى قريش يشكر له اهتمامه بارسال ارسلان خاتون وقال له : ارجو ان ترد الخليفة الى عاصمته وتتولى انت تدبير شؤونه . وكن على ثقة باني لن اعود الى بغداد لاني منصرف الى تدبير شؤون مملكة العجم . واذا تعذّر عليك اقناع البساسيري لزمك ان تلوذ باحدى القلاع او البراري حرصاً على نفسك الكريمة وعلى آلك لئلا يلحق بهم جنودنا أذًى دون تعمد وهم زاحفون الى تلك الاطراف . فلقد منيتَ علينا بمنّة كبيرة اذ ارسلت الينا ولدنا ولا سبيل لنا الى مكافأتك مهما بذلنا لك .

فكتب قريش الى البساسيري وهو في واسط يقول : عَلامَ هذه المصارعة كلها ؟ ألأجل المصري الذي لم يتنزّل ان يبعث الينا برسالة اعتيادية مع اننا أذعنا المناداة به في بغداد عينها ؟ فالحليق بنا ان نتّفق مع السلطان ونعيد الخليفة الى عاصمته . غير ان البساسيري لم يذعن لمشورة قريش . فاضطرّ هذا ان يرحل الى البرّية في أهله . ثم زحف السلطان في جيوشه الى حدود بغداد . ولما شارف الحديثة سارع اليه اميرها مستصحباً الخليفة اذ كان محبوساً عنده . فوجّهه السلطان الى بغداد بمظاهر الاجلال واعتذر له قائلًا : اني بسبب وفاة اخي جئتُ بلك وتنظيم بنيه وخروج ابرهيم اخي الثاني عليّ تأخرتُ عن استدراك مسلكك . فابتهج الخليفة وسرّي عن قلبه الهمّ . وبعد هذا وجّه السلطان عساكره نحو البساسيري فوثبوا اليه وهو منهزم وحزّوا رأسه وجاؤوا به الى السلطان فأمر ان يربطوه برأس قصبة ويعلّقوه على باب البلاط . هكذا استراح السلطان من عدا المعدّيين (٢٤١) وقفل راجعاً الى خراسان .

وفي السنة ٤٥٥ للعرب (١٠٦٣ م) توفيت خاتون امرأة السلطان طغرل بك . وكانت عزيزة على قلبه جدًّا . اذ كانت كلّ الشؤون الدولية بيدها . وارسل الى الخليفة في خطبة ابنته فأبى ان تُزَفّ ابنة عربية الى غريب عن قبيلته وعن أسرته . فارتاب السلطان وعاتبه عتاباً مرًّا وتظاهر بالعداء له . فتخوّف الخليفة وزفّ اليه ابنته على كره منه وشرط ألّا تغادر البلاط وان يكون السلطان عندها كلما زار العاصمة . وبعد اخذ وردّ رخص لها ان تنتقل الى الدار التي ابتناها السلطان حديثاً . ثم يمم السلطان بغداد وأدّى مائة الف

دينار ذهباً ومائة وخمسين الف درهم واربعة آلاف قطعة قماش فاخر بثابة جهاز . ولما زفّت اليه العروس ودخلت داره نهض السلطان وحشه ورقصوا كعادتهم يركعون تارةً وطوراً يقفون ويغنون اغاني تركية وهي مستوية على عرش ذهبيّ . وركع السلطان كذلك امامها وهي متقنّعة ولم يجلس بل تركها ومضى . وظلّ كذلك سبعة ايام . وأصبح العرس بجابةً لبهجة السلطان وكمد الخليفة ولاسيما لمّا غادر السلطان بغداد الى خراسان واستصحب ابنة الخليفة امرأته قسراً خلافاً لما أبرمه من العهود ببقائها في وطنها .

وفي هذه السنة ١٣٧٤ للبونان (١٠٦٣ م) زحف الروم الى آمد وحاصروها اياماً كثيرة . وتألب الأتراك والعرب وتناوشوا وهلك الكثيرون من كلتا الناحيتين وترك الروم المدينة ورجعوا .

وفي ٧ ايلول هذه السنة مات طغرل بك (٢٤٢) في الريّ بفارس بالغاً السبعين قضى منها ثلاثين سنة ملكاً وثماني سنوات في بغداد . وأوصى بالملكة لسليمان بن جغري بك . لكنّ اخاه الب ارسلان زاحمه وملك مكانه ونودي بضياء الدين سلطاناً في بغداد وغيرها .

وفي السنة ٤٥٦ للعرب (١٠٦٣ م) حدّث بعض الصيادين الأكراد ببغداد انهم لما كانوا في البرية يقتنصون شاهدوا خياماً سوداء وسمعوا اصواتاً عويل ونوح وبكاء . فقصدوا المكان وسمعوا صوتاً يقول : اليوم مات بعلزبوب رئيس الجنّ . فالذي لا يقيم الحداد عليه اياماً ثلاثة يُنقض بيته من اساسه . فسمعت نساء بغداد تلك الصفة وهرولنّ الى المقابر ومكثنّ ثلاثة ايام ينحنّ ويندبنّ ويمزّقنّ ثيابهنّ وينتفنّ شعورهنّ ويسخمنّ وجوههنّ بسواد القدور كأنهنّ يسترضينّ الابالسة لئلا تبطش باعزائهنّ . وانتشر مثل هذا الخبر في ارض سنعار والموصل وارمينية .

وفي هذه السنة سار السلطان الب ارسلان الى مدينة آني وهي أولى مدن الروم بناحية ارمينية ودوّخها واحدث فيها مذبحةً فظيعةً . وآني هذه مدينة عامرة يحيط بثلاث نواحيها نهر أراس الكبير وفي ناحيتها الرابعة خندق عميق تجري فيه مياه ذلك النهر يعبره الاهالي على جسر غادين راتحين . وكانت

تشتمل على سبعمائة الف دار وعلى الف كنيسة . على ان الاتراك لما آيسوا هبط بغتة احد اوراجها باشارة علوية فوضعوا جسرًا ودخلوها . واطلقوا على سلطانهم بسبب ذلك لقب ابي الفتح .

ومنذ كسرين الاول حتى كانون الاول تلك السنة حدث حرّ لافح في بغداد لحقه مرض ووباء حتى بيع منّ التمر الهنديّ باربعة دنانير ذهبية (٢٣٤) وحدث في كانون الثاني برد شديد وجمد دجلة وهبط في بغداد ثلج كثير.

وفي السنة ٤٥٨ للعرب وهي السنة ١٣٧٧ لليونان (١٠٦٦م) سار السلطان الب ارسلان الى خوارزم واستعمل عليها ابنه سلادشاه وعاد الى نيسابور.

وفي هذه السنة اجتمع ثلاثمائة لصّ ارمني بقيادة خزريج كبيرهم واخذوا يكمنون في جبال ملطية وينزون بلد جوباس وقلودية وينهبون الاديار . فكرّوا على دير سرجسية وبعثروا عظام الشهداء واخذوا صندوقتها . وساروا الى قرية سنجاس بجوار دير ماديق واستخرجوا من المؤونة ما قيمته الف ومائة دينار سوى البقر والحمير وخمسمائة دينار نقدًا . وقرّر زعماء ملطية ان يؤدّوا لهم جزية عن جوباس وعن قلودية . ثم ارسل الارمن الى الملك فوجّه اليهم فرمانًا بامتلاك اربع قرى شرط ان لا يعودوا الى النهب والغزو . لكنهم لم يكفّوا عن التعدي بل انتووا ان ينهبوا دير برصوما ويتحصنوا به واذا صوتّ بياغتهم بوصول الاتراك الى ملطية تكرارًا . فانهزم اهالي قلوديا الى الدير المذكور في عشرة من اللصوص الارمن وظلّ بقيّتهم في الجبل وتمّ الاتفاق على ان اولئك العشرة يفتحون لهم الباب ليلًا ليدخلوا الدير ويتحصّنوا به . فشعر الراهب ايونيس بالمكيدة وانتقى رجالًا اشداء من قرية تل توراا المباركة وكانوا يومئذٍ في الدير فقبضوا على اولئك العشرة والقوهم من شرفة الدير دون علم الرئيس وشوهدوا في الصباح مرعى بلعف الجبل واتهزم اصحابهم الارمن . وبعد ايام بنى الدير رهبان ونساك من ملطية فوثب اليهم اولئك اللصوص وبطشوا بثلاثة منهم . وبعد ثلاث سنوات ابتنى الرهبان (٢٤٤) البرجين العاليين وابتنوا برجًا ثالثًا ما بينهما بعد اثنتين وثلاثين سنة . وفي السنة ١٤٧٥ لليونان(١١٦٤م) شيّد البطريرك ميخائيل المنبوط البرج الجنوبيّ وحصن الدير العالي.

وفي السنة ٤٥٩ للعرب (١٠٦٦ م) سار كوشتكين القائد التركي الى الرها وتغلب على الدوقاس وأوثقه فافتدى نفسه بعشرين الف دينار وعاد الى المدينة. واحتلّ كوشتكين حران وسروج والرقة . ثم توجه يريد زيارة السلطان الب ارسلان وعند وصوله الى خلاط سخط على احد امرائه وبطش به وكان لهذا الامير اخ اسمه افشين . هذا عمد الى كوشتكين وأجهز عليه وهو سكران. وبعد هذا حشد الاتراك وزحف بهم الى انطاكية يغزو ويسبي .

وفي هذه السنة زُفّت ابنة اخت فقراط ملك الكرج في ابكاز الى السلطان الب ارسلان واحتفلوا بالعرس في همذان وما مرّ القليل حتى دفع لها كتاب الطلاق واقترن بها احد العظماء .

وفي السنة ٤٦٠ للعرب (١٠٦٧ م) برز ارسطاكيس البطريق الارمني من حصنه وسار في مائتي رجل الى حصن امنع خيفةً من الاتراك . فوثب اليه الامير بشروانشاه التركي فهلع الارمن وقالوا له اننا ماضون الى السلطان لنجاهر بالاسلام بين يديه . فسيّرهم اليه مكرّمين وجاهروا بالاسلام مرغمين واختُتنوا . وقرّر السلطان ان يدفع للبطريق كل سنة عشرين الف دينار لمعاشه . غير ان اولئك الارمن ما عتم ان عادوا الى ارمينية الداخلية ورجعوا الى ديانتهم النصرانية .

وتوفي قسطنطين دوقاس ملك الروم وخلفه رومانس ديوجنيس . فزحف عام ١٣٨٠ لليونان (١٠٦٩ م) في مائتي فارس الى سورية وقاتل المعدّيين بني كلب وقهرهم واحتلّ (٢١٥) قلعتي عم وارتح وكانتا للعرب . وانتشر الروم في ضواحي منبج وانهزم اغلب اهاليها الى حلب . وبلغ كراء الجمل من منبج الى حلب ثمانين دينارًا ذهباً . واحتلّ الروم منبج وقتلوا خلقاً كثيرًا وقوّضوا سورها وابتنوا بحجارته قلعتها القديمة . وفشا الغلاء فيهم اذ لم يستطيعوا امتيار الغلال من حدود الاتراك المتوّدين الغزو والنهب فصار رطل الخبز بدينار وست حفنات شعير بدينار . وحدّث بعض المعدّيين انهم قتلوا رجلًا روميًا وبقروا بطنه فعثروا على حبّات شعير صحيحة . وبلغ الملك ان افشين التركي زحف الى بلاد الروم واحتلّ عمودية فاقام حرّاساً في القلعة التي احدثها في منبج وعاد الى بلاده .

وفي السنة ٤٦٢ للعرب (١٠٦٩ م) حدث غلاء في مصر حتى اكل الناس بعضهم بعضاً . ولم يبقَ فيها سوى ثلاثة احصنة للخليفة وأكل سائر الخيل والبغال والجحاش اصحابُها . وبيع الكلب بخمسة دنانير وعشرة دراهم . وبيعت وزنة البصل بدرهم فضة . ونزل الوزير يوماً عن بغله ليزور الخليفة فسارع ثلاثة رجال وخطفوا البغل من يد الصبي وذبحوه واكلوه . وبلغ الخليفة الخبر فأمر بشنق الثلاثة . فاقبل نحت الليل رجالٌ انزلوهم عن الاخشاب وذبحوا لحمانهم وانصرفوا . ووُجدت عظامهم صباحاً مجرّدة مكوّمة تحت تلك الاخشاب . وقد امتدّ الجوع الى بلاط الخليفة نفسه حتى اضطرّ ان يبيع امتعته الملكية باثمان بخسة . وبيعت عشر لآلئ وزنها عشرة مثاقيل باربعمائة دينار . وكان في تنيس وهي صاعان احدى مدن مصر (٢٤٦) ثلاثمائة رجل يؤدون الجزية فأمسوا اقلّ من مائة حين الغلاء .

وفي السنة ٤٦٣ للعرب وهي السنة ١٣٨٢ لليونان (١٠٧١م) زحف السلطان الى اركسطيا وهي ارغش ودوّخها وفتك بالكثيرين من اهلها واحرز غنائم وافرة بعث بها الى خراسان . وأجرى مثل ذلك في مدينة مناز كرد . ثم ارتحل الى ميافرقين وهي للعرب واستتزف من صاحبها اكثر من مائة الف دينار وانطلق الى آمد ودنا من سورها وتبرّك بحصانته . وسار الى سويرك وهي للروم وأخذ من اهاليها الف دينار وتركهم . ثم توجّه الى الرها وحاصرها اياماً كثيرة ولم يفتحها فقطع اشجارها وأتلف بساتينها ووعده الرهاويون بخمسين الف دينار شرط ان يرحل عنهم . فارتضى السلطان فقال له الرهاويون : ان ندفع شيئاً ما لم تحرقوا المنجنيقات وتتلفوا سائر ادوات الحرب لاننا نخاف ان تطمعوا بالذهب وتستأنفوا الحرب . فأمنهم السلطان واتلف ادوات القتال . غير ان الرهاويين لم يدفعوا له شيئاً فتركهم السلطان حاقدًا وعبر الفرات .

وعند ذلك وصل سفير الملك ديجنيس وقال للسلطان : بما انك تركتَ وطنك وأتيت فنحن نردّ لك منبج وانتم تردّون لنا ارغيش ومناز كرد . ونؤدي لكم الجزية المعتادة حولًا فحولًا . فرضي السلطان وعاد الى خلاط فارسل اليه الافشين يقول : اني زحفت الى بلاد الروم ورجعت في غنائم وافرة دون

ان يعارضني احد . فاستجمع السلطان قواه وانقلب مسرورًا الى بلاد الروم وهلك في الطريق اغلب جماله الموسقة ذخائر بسبب جريها السريع . وتوغل الافشين (٢٤٧) في تلك البلاد حتى وصل الى ساحل البحر الذي يمرّ بقسطنطينية وغزا وسبى وانطلق الى مقدونية . ولما وصل الى سينادر باغته الثلج المتراكم فارسل الى امرأة يونانية اسمها مريم كانت متولّية القلعة يسألها السماح للجيش التركي كي يدخل القرى والمدينة لابتياع المؤونة . وهدّدها بقلع الاشجار والكروم والبساتين ان أبت . ولكنها لبّت طلبه .

اما الملك ديوجنيس فحشد الفيالق وبرز من ناحية ارمينية متغطرساً متعطرفاً ووصل الى مناز كرد وكشف عنها اصحاب السلطان دون أذى . فسمع السلطان وعدل عن الزحف الى بلاد الروم بسبب قلّة عسكره . ووجّه سفيره سوتكين ليعقد الصلح مع الملك ويؤيده بقسَم ويعود كلٌ الى وطنه . لكنّ ديوجنيس تجبّر وقال : لا يتيسّر لي الرجوع بعدما افرغت خزائني من المال وطوّحت بجنودي واصبحت الغلبة بجانبي . كلّا ليس لكم عندي الّا السيف !

عند ذلك عزّز الله سبحانه المذلّل المتكبّرين عزائم السلطان فجهّز جنوده ونفخ فيهم روح البسالة والشجاعة . وألقى عنه القوس والسهم ولبس الدرع وقبض على الخنجر والرمح وربط ذنب حصانه وركب وركب الاتراك مثله ورتبوا الى الروم يوم الجمعة وقت الظهيرة وهم بين خلاط ومناز كرد وتشبوا فيهم وهم يضجّون ويعجّون . فبلع الروم اي هلع وقتل الاتراك كثيرين منهم واعتقلوا غيرهم وانهزم بقيّتهم . وعند المساء اقبل كهريا الحاجب التركي وقال للسلطان : ان احد عبيدي قد اعتقل الملك ديوجنيس وهو عنده . وكان هذا العبد من المغضوب عليهم وقد منع قائده عنه المعاش . فقال له كهريا انه هو هو (٢٤٨) الذي اعتقل الملك فلا تستهزئ به . اما السلطان فعلى رغم ارتيابه في الامر سيّر الشاب شادي فورًا ليطّلع على الحقيقة . وكان شادي المذكور قد ذهب غير مرّة الى قسطنطينية مع السفراء وشاهد الملك بامّ عينه . فذهب ورأى ديوجنيس معتقلًا والخصي امامه . ثم عاد مسرعاً الى السلطان فأكّد له انه هو الملك ذاته . فأمر السلطان ان ينصبوا لديوجنيس خيمة ملكيّة معتبرة

ويمضوا به اليها . واوثقوا يديه وعنقه واقاموا مائة تركي يحفرونه . وعند الصباح أمر السلطان باحضاره وصفعه اربع صفعات بيده وقال له : لماذا رفضت طلبي وقتما سألتك الصلح والموادعة ؟ وكان ديوجنيس حكيماً خبيرًا فاجابه بكلام متزن وقال : لقد صنعتُ ما امكنني ولم اتعدَّ ما يصنعه الملوك مثلي . غير ان الله اكمل مشيئته . فالآن دع العتاب واصنع ما بدا لك . فقال السلطان : قل لي الآن ما كانت نيتك ان تصنع بي لو وقعتُ بيدك ؟ قال الملك : كلّ سوء اذ ما من عدوّ يلاقي عدوّه الّا ليُسيء اليه . قال السلطان : صدقتَ في ما نطقت . ولو اجبت غير هذا الجواب لما صدّقتك . فقل لي الآن : ما ظنك ان اصنع بك انا ؟ قال الملك : واحدةً من ثلاث : الاولى ان تقتلني . والثانية ان تفضحني فتطوف بي في بلادك ليطّلع الناس على غلبتك ونصرتك . والثالثة لا حاجة الى ذكرها . لان ذلك وهمٌ بعيدٌ جدًّا عن الحقيقة . قال السلطان : ما ضرّك لو قلتَهُ لي ؟ قال الملك : ان تعيدني الى وطني معزّزًا فاغدو كاحد بطارقتك : اذا دعوتني لبّيتك واذا امرتني اطعتُك . قال السلطان : لا انوي الّا انجاز هذا الامر الثالث الذي قطعتَ (٢٤٩) منهُ املك .

ثم طلب السلطان من ديوجنيس عشرة آلاف الف دينار فديةً . فقال الملك : لو وهبتُ لك مملكتي كلها لكانت كلا شيء نظرًا الى نجاتي . ولكن لا يخفى عليك اني أفرغتُ خزائن الروم برمّتها منذ توليتُ امرهم وانفقتها على الجند الذين استخدمتهم . واخيرًا أطلق السلطان سبيله على ان يؤدي الف الف دينار ديةً عن نفسه وثلاثمائة وستين الف دينار كلّ سنة جزيةً . ثم أمر فحلّوا وثاقه وأجلسهُ على الكرسي الذي انتزعه منه وأكلا وشربا معاً . ثم طلب السلطان انطاكية والرها ومنبج ومنازكرد فقال الملك : متى رجعتُ الى مملكتي أرسلْ انت جنودك ليحتلوها وانا اكتب الى اصحابها ليسلّموها . والّا فاذا كتبتُ لهم الآن لا اظنّ انهم يطيعوني . فاذا احببت ابعثني الآن الى بلادي قبل ان يقيموا ملكاً بدلًا مني . والّا فلا يتيسّر لي ان انجز شيئاً من هذا كله . وبعد هذا أمر السلطان ان يركب مع الملك مائة عبدٍ واميران الى قسطنطينية . وودّعه هو نفسه مسافة فرسخ ولمّا عوّل على الرجوع احبّ الملك

ان ينزل عن حصانه ليودّعه فاستحلفه السلطان ان يظلّ راكباً وهكذا تلاثما وتعانقا راكبين وافترقا .

هكذا رأينا هذا الخبر في نسختين احداهما عربية والثانية فارسية . غير ان البطريرك ميخائيل المنبوط ذكر ان ابن اخت السلطان هو الذي قبض على الملك وان رجلاً كردياً وثب فقتله واوثق الملك كأنه هو الذي أحرز الغلبة . وان السلطان لما سأل الملك ما كانت نيّتك ان تصنع بي لو وقعتُ بيدك ؟ وان ديوجنيس قال له : كنت أحرقك بالنار . فعلى ما يظهر ان عبارة كهذه لا يعقل ان يقولها ملك لملك . زد عليه ان رجلاً كردياً لا يتيسّر له ان يقتل ابن اخت السلطان ويخطف الملك من يده مدّعياً انه هو الذي اوثقه . اذ كان هذا الكردي يخشى (٢٥٠) اقلّه ان يفضح الملك كذبه .

امّا اليونان فلما بلغهم ما حدث لديوجنيس نادوا بميخائيل بن قسطنطين ملكاً وهذا قبض على امّه التي كانت امرأة ديوجنيس وجعلها في الدير قسراً . واقام عمه ايونيس مدبراً للمملكة . ولما وصل ديوجنيس الى العاصمة وسمع ما جرى قصد قامة دوقية واقام بها ولقي هناك مائتي الف دينار بعث بها الى السلطان مع الاميرين اللذين صحباه وأخبره بما جرى . ثم توشح بالكيم الرهبنة هناك وبعث يقول لميخائيل الملك : حسبي اني جاهدتُ جهاداً حسناً في سبيل المسيحيين حتى الآن . فلتكن لك المملكة مباركة فهي جديرة بك وقد احسنتَ في ما صنعت . واشير عليك مشورة امين صدوق بان تقرّر الصلح مع السلطان والّا فان تراتاح ولن يرتاح المسيحيون . فشكره الملك وصرّح بانه يمتثل مشورته .

غير انه بعد ايام اضطرّه البعض فكتب الى ديوجنيس يقول : ان كنت راهباً حقيقياً لزمك ان تترك القلعة وتنقطع الى احد الديورة فنرسل نحن من يحرسها . فسخط ديوجنيس وقال : ألا استحقّ قامة واحدة من كل المملكة الرومية ؟ ثم نزع ثوب الرهبنة واستقرض النقود من تجار دوقية وجمع جيشاً . ثم جاءه ابن سنحاريب بطريق ارمينية الصغرى فقبض عليه وسمل عينيه واستلف منه ثمانين قنطاراً ذهباً . هكذا اشتدّ ساعده وسار الى ملطية وارسل الى السلطان الب ارسلان يستنجده فوعده بان يوافي بذاته الى نجدته كلما دعت

الحاجة . ثم انتقل ديوجنيس من ملطية الى قيليقية ففاجأه ايونيس عمّ الملك وحصره في اطنة وقبض عليه وأخبر الملك ميخائيل فكتب له الملك ان يحضره اليه بكل اكرام وتحفظ ليضعه في احد (٢٥١) الديورة . غير ان ايونيس فقأ عيني ديوجنيس قبل ان يوصله الى العاصمة فظلّ ديوجنيس يضرب رأسه في الجدار حتى لفظ روحه . وقد ارتاب الملك والاقطاب وحنقوا على ايونيس لانه فعل ما فعل دون امر الملك .

وفي هذه السنة انتزع الفرنج صقلية من العرب . وكان حاكمها قد ابتاعها من خليفة مصر .

وفي السنة ٤٦٥ للعرب (١٠٧٢ م) مات السلطان ألب ارسلان وخلفه ابنه ملكشاه . وتمت وفاة السلطان هكذا : كان شمس الملك بن طباجاج متولياً امر بخارى وسمرقند وسائر ما وراء نهر جيحون من البلاد . وكان الياس بن ألب ارسلان متولياً خوارزم . فتحرّش احدهما بالآخر وثار ابن طباجاج على امرأته وهي بنت السلطان ورفسها برجله غير مرّة حتى أجهز عليها وهو يقول : لست امرأتي بل جاسوسة عندي تثيرين اخاك ليأتي ويتلف بلادي . وما ان سمع السلطان بقتل ابنته حتى اخذته النخوة فحشد الجنود وعبر النهر واقام الحصار على مدينة كان حاكمها خوارزمياً ناوشه القتال واغواه بالوعود ثم غزله . فأمر ان يوثقوا يديه ورجليه باربع مسامير ويرشقوه . فاحتدم الخوارزمي سخطاً وجعل يشتم السلطان الى ان قال : ويحك ايها المخنث أهكذا تقتل من كان مثلي ؟ فارت دماء السلطان وقال للجنود : دعوني ارشقه دون وثاق واقتله . فتركوه فرشقه سهماً واحداً فاخطأه . ووثب الخوارزمي على السلطان وطعنه بسكين في خاصرته عثر عليه هناك . وألقى احد الحجّاب بنفسه على السلطان فتركه الخوارزمي وجعل يطعن الحاجب بسكينه . عند ذاك بادر رجل ارمني ممن يخدمون الخيام مسرعاً وضرب الخوارزميّ على يافوخه بمرزبة وبطش به . اما السلطان فلم يمش بعد تلك الضربة الّا اياماً معدودة ومات وشُيّع الى مرو ودُفن (٢٥٢) بجانب ابيه جغري بك . وأوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه . واقترن اخوه قاروت بك بخاتون امرأته وتولى بلد شيراز سوى القلاع فقد

ظلّت في حوزة السلطان .

اما قاروت بك وكان يترقب وفاة اخيه من امدٍ مديد فلما نُعي اليه سارع في السفر من كرمان بحرًا في الشتا . ووصل الى شيراز . ثم قصد خراسان وحشد الجنود ليقاتل ملكشاه ابن اخيه . فتهيأ ملكشاه لمحاربة عمّهِ وتغلّب عليهِ واعتقله وفتك به . وفقأ عيون ابنائه الخمسة وتوفي الابنان الصغيران وعاش الثلاثة عمياناً وهم : سلطانشاه وتركانشاه ووردنشاه . ولو ظلّ ملكشاه في وطنه لازداد اعتبارُه كالسلطان اخيهِ .

وفي السنة ٤٦٦ للعرب وهي السنة ١٣٨٤ لليونان (١٠٧٢ م) هبطت أمطار غزيرة متواصلة منذ تشرين الثاني حتى ٢٤ شباط . وفاضت الانهار وطفحت المياه في ارض بغداد وتفجرت وقوّضت دورًا شتى . وانهزم الاهالي الى غربي المدينة . وغمرت الامواه دار الخليفة عند باب نوبة الذي يحرسه الحجّاب النوبيّون . فانهزموا هم والجواري وكل من كان في الغرف وهي الف وخمسمائة غرفة . وخرجوا سابحين وانطلقوا الى ناحية بغداد الغربية واعتصموا ببيوت العامّة . وغمرت المياه سرير الخليفة فانهزم نحو الباب ولم يتيسّر له العبور فاقبل احد الحجّاب وحمله ووضعه في زورقٍ ووضع معه كذلك نساءه وبعض ما امكنه ان يأخذه من الاثاث تملّصاً من الغرق . واتّشح الخليفة بقميص نبيّهم وقبض على الصولجان كمن يحاول منع طغيان المياه دون جدوى . واقام الكثيرون في القوارب بلا طعام حتى ان الخليفة ذاته ظلّ يومين لا يصيب طعاماً .

وحدث مثل ذلك الوزير اذ ظلّ يومين دون طعام وهو في قاربٍ ملقى على الاخشاب . وغمرت المياه الصحراء وأغرقت كثيرين من المعدّيين . قيل ان بدويًا لمّا دنت منه المياه اركب امرأته حصاناً وابنته حصاناً ثانياً وركب هو حصاناً ثالثاً فطفحت المياه واغرقت امرأته وابنته وخنقتهما . وبادر البدوي الى شجرةٍ قريبةٍ تسلّقها وترك الحصان وظلّ كذلك اياماً حتى قلّت المياه . وشوهدت سباعٌ وجواميس واقفة في قمم الجبال مبهوتة وقد اكتنفتها المياه ولم يؤذِ بعضها بعضاً .

وفي السنة ٤٦٧ للعرب (١٠٧٤ م) توفي الخليفة القائم بداء الخناق ليلة

الخميس لثلاث عشرة من شعبان . وعاش خمساً وسبعين سنةً . وكان اصفر اللون بسبب اكثاره من اكل الباليون ؟ وخلفه ابنه المقتدي وعلى زعم المنجمين انه كان في خطر الموت تلك الليلة لان طالعه كان المريخ وقد هبط تلك الليلة من برج العقرب الى برج الجوزاء في دائرة زحل ببرج القوس . ووصلا كلاهما الى برج الاسماك وبه كان انقضاء تلك السنة .

(له صلة)